

القَصَصُ الدِّينِي
الحلقة الأولى
قصص الأنبياء

أمرنا أن نعبد

عبد الحميد جودة السحار

بعد انتهاء الطُّوفان ، ونُزولِ نوحٍ ومن معه من السفينة ، أخذ هؤلاء المؤمنون الذين نَجَوْا معه يتزاوجون ويأتون بأولادٍ وبنات ، حتى كثرَ الناس ، وعَمِرَت الأرض ، ونبتَ الزروع ، وتكاثرَ الحيوانُ والطيرُ ، وعادت الدنيا كما كانت قبلَ الطوفان .

ولما كثرَ الناسُ تفرقوا في الأرض ، وسكنت كل قبيلة في ناحية منها ، ومَلَكَتْها وعَمَّرَتْها ؛ ومن هذه القبائل الكثيرة ، كانت هناك قبيلةٌ تسمى « عاد » تسكنُ في جنوبِ بلادِ اليمن ، بالقربِ من البحر ، في وادٍ تحيطُ به المرتفعاتُ الرملية .

وكانت الأمطارُ كثيرةً في هذا الوادى ، لقُربِهِ من البحر ، كما كانت العيونُ تتفجّرُ في أرضِهِ ، وتسيلُ

مياها . ولذلك كُثِرَتْ فيه المزارعُ والحقول ،
والحدائق والمراعى ، وتكاثرَ الحيوانُ والطيور .
وصارت هذه الجهة كأنها قطعة من الجنة .

وقد بنى أهلها مدينةً جميلةً كانت أحسنَ مدينةٍ في
الدنيا في هذا الوقت ؛ فقد كانت بيوتها مرفوعةً
على أعمدة ضخمة ، وطرقاتها فسيحة ، ومُزَيَّنةً
بالحدائق والمتنزهات ، وكانوا يسمونها : إرم ذات
العماد ، التي لم يُخلَقْ مثلها في البلاد .

وكان هؤلاء الناسُ ضخامًا عمالقة ، أقوياء
الأجسام ، أشدَّاء جبارين ، فبنوا الحصون والقلاع ،
وأسسوا مصانعَ لنحتِ الأحجار ، وعملِ الأسلحة
وغيرها ، وطغَوْا وتكَبَّرُوا لأنهم أقوياء ، لا يغلِبُهُم
أحد .

وكانوا يُقيمون علاماتٍ للمرور في الصحراء

المحيطة ببلادهم ، ولكنها كانت علامات كاذبة ،
ليس غرضهم منها إرشاد الناس المارّين إلى الطرق
المأمونة ، بل كان غرضهم تضليل الناس ، والضحك
عليهم ، ليتيهوا في الصحراء ، ولا يعرفوا الطريق .
وكذلك كانوا يخرجون لضرب الناس ، والإغارة
عليهم ، بوحشية وقسوة فظيعة ، ولا يرحمون أحدا ،
ولا يُشفقون عليه .

ثم نحتوا الأحجار ، وجعلوها أصناما ، وقالوا :
إنها آلهة : كما كان الكفار من قوم نوح يصنعون ،
قبل أن يُغرقهم الطوفان .

لذلك أرسل الله إليهم سيدنا هودا ، وهو واحد
منهم ، لينهاهم عن عبادة الأصنام ، ويرشدهم إلى
عبادة الله ، وينصّحهم بأن يتركوا القسوة
والوحشية ، ويكونوا رُحماء بالناس ، فلا يؤذوهم ،

ولا يُقيموا العلاماتِ الكاذبةَ في الطريق ، لتضليل
المسافرين والضَّحكِ عليهم ، والسُّخرية منهم ، أو
قتلهم وسلب ما معهم .

٢

ذهب هود إلى قومِهِ ، فقال لهم :
— يا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا ، وما أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا
عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ .
قالوا :

— وما الذى تُريدُه مِنَّا يا هود ؟
قال : يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلَا
تَتَّقُونَ ؟

قالوا : أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ ، وَنَذَرَ ما كَانَ يَعْبُدُ

آباؤنا ؟

قال : يا قوم ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ ،
وَأَعْطَاكُمْ هَذِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ أَنْ أَهْلَكَ قَوْمَ نُوحَ ،
وَجَعَلَكُمْ أَقْوِيَاءَ الْأَجْسَامِ ، وَأَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ،
أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ، وَجَنَّاتٍ وَعَيْوُنَ .

قالوا : يا هود : أَلَسْتَ رَجُلًا مِّنَّا ؟ فَلِمَ إِذَا اخْتَارَكَ
اللَّهُ عَلَيْنَا ؟

قال : وهل تعجبون لأنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ إِلَيْكُمْ وَاحِدًا
مِّنْكُمْ ، لِيُرْشِدَكُمْ وَيُعَلِّمَكُمْ ، حَتَّى تَتْرَكُوا الْأَعْمَالَ
الرَّدِيئَةَ الَّتِي تَعْمَلُونَهَا ، وَلَا تَتَوَذَّعُوا النَّاسَ ، وَلَا
تَضْرِبُوهُمْ ، وَلَا تُقِيمُوا الْعَلَامَاتِ الْكَاذِبَةَ لِيَضِلُّوا ،
وَأَنْتُمْ تَضْحَكُونَ مِنْهُمْ وَتَسْخَرُونَ ؟

قال الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ : إِنَّا لَنَرَاكَ فِي
سَفَاهَةٍ ، وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ .

قال : يا قوم ليس بي سَفَاهَةٌ ، ولكنى رسولٌ من ربِّ العالمين ، أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي ، وأنا لكم ناصحٌ أمين .

قالوا : يا هودُ ما جئتنا ببَيِّنَةٍ ، وما نحن بباركي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ ، وما نحنُ لك بمؤمنين . إنَّ نقولُ إلا اعتراك بعضُ آلِهَتِنَا بسوءٍ ، ولذلك فانت مَغْتَاظٌ من آلِهَتِنَا ، لأنها أساءت إليك وآذتكَ ، فتريد منا أن نترك عبادتها ، ونعبد إلهك .

قال : إني أشهد الله أننى صادق ، وآلهتكم لا تستطيع أن تضرَّ أو تنفع ، وأنا برىءٌ منها ، لأنها أحجارٌ وليست آلهة ، وأنا أنصحكم فقط ، حتى لا يَغْضَبَ الله عليكم ، فيُهْلِكْكُمْ وَيُعَذِّبَكُمْ .

قالوا : يا هود ، هل تُهَدِّدُنَا بالهلاك والعذاب ؟

فَمَنْ هُوَ الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى قِتَالِنَا ، وَنَحْنُ قَوْمٌ أَشِدَّاءُ ،
وَلَيْسَ هُنَاكَ أَحَدٌ يَغْلِبُنَا .

قَالَ : يَا قَوْمَ ، إِنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْكُمْ
قُوَّةً ، فَهُوَ الَّذِي أَعْطَاكُمْ هَذِهِ الْقُوَّةَ ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى
أَنْ يَأْخُذَهَا مِنْكُمْ ، وَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ الْهَلَكَ وَالْدمَارَ .

قَالُوا : يَا هُودَ ، اذْهَبْ فَقُلْ لِرَبِّكَ يُرْسِلُ عَلَيْنَا هَذَا
الْهَلَكَ الَّذِي تُهَدِّدُنَا بِهِ . وَسَنَرَى إِنْ كَانَ يَقْدِرُ عَلَيْنَا .
اِذْهَبْ يَا رَجُلُ اذْهَبْ ، فَنَحْنُ لَا نُصَدِّقُ هَذَا الْكَلَامَ
الْفَارِغَ الَّذِي تَقُولُهُ . وَإِنْ كَانَتْ لَدَيْكَ مُعْجَزَةٌ
فَأُظْهِرْهَا لَنَا ، وَنَحْنُ فِي انْتِظَارِكَ يَا أَخَانَا !

عَرَفَ هُودٌ أَنَّ الْكَفَارَ مِنْ قَوْمِهِ لَنْ يُؤْمِنُوا ؛ لِأَنَّ
 قُلُوبَهُمْ أَصْبَحَتْ قَاسِيَةً ، وَالنَّعْمَةُ الَّتِي هُمْ فِيهَا قَدْ
 جَعَلَتْهُمْ يَنْسَوْنَ رَبَّهُمْ ، وَيُظَنُّونَ أَنَّهُمْ أَقْوَى مِنَ اللَّهِ ،
 وَأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِمْ !

وَدَعَا هُودٌ رَبَّهُ أَنْ يَنْصُرَهُ عَلَى قَوْمِهِ ، لِأَنَّهُمْ كَفَرُوا
 وَضَلُّوا .

عِنْدَ ذَلِكَ حَبَسَ اللَّهُ الْمَطَرَ عَنْ قَوْمِ هُودَ ، وَمَضَتْ
 مَدَّةٌ طَوِيلَةٌ لَمْ تَنْزِلْ فِيهَا أَمْطَارٌ ، حَتَّى جَفَّ الزَّرْعُ
 وَمَاتَ ، وَلَمْ تَجِدِ الْأَنْعَامَ وَالْمَوَاشِيَ زُرْعًا تَأْكُلُهُ ،
 فَهَزِلَتْ وَنَقَصَ وَزْنُهَا .

وَكَانَ الْقَوْمُ يَتَلَهَّفُونَ عَلَى نَزُولِ الْمَطَرِ ، لِأَنَّ الْمِيَاهَ
 الْقَلِيلَةَ الَّتِي فِي الْعْيُونِ وَالْآبَارِ لَا تَكْفِي إِلَّا لِلشَّرْبِ ،

ولا يزيد منها شيء لرى الأرض والأشجار والحدائق
والحقول والمراعى ، فذهبوا إلى آلهتهم ، وصلُّوا لها ،
ودَعَوْا أن تُرسلَ عليهم المطر بعد هذا الجفاف .

وكان هودٌ يقول لهم : يا قوم ، آمنوا حتى يرسلَ
الله المطر ، ويُنجِّبكم من الضيق الذى أنتم فيه .
فيقولون له : لقد دعونا آلهتنا ، وسُترسلُ لنا المطر
قريبا ، فاذهب عنا . وإذا كان إلهك الذى تقول عنه
موجودا ، فليصنعْ ما يريد !

٤

وفى يومٍ رأوا سحابةً سوداءَ عظيمةً ، مقبلةً فى
السماء نحوهم : ففرحوا وهللوا ؛ وقالوا : هذه
سحابة ممطرة ألا ترونها سوداءَ كثيفةً ، لقد
استجابتْ آلهتنا لدعائنا ، فأرسلتْ لنا هذه السحابة

العظيمة ، التى ستملاً الوادى ماء ، وتُروى الحقول
والمراعى ، يا فرحتنا ! يا فرحتنا !
وراحت جماعةٌ تحرثُ الأرض ، وتبذرُ الحبوب ،
فى انتظارِ المطرِ الغزير الذى سينزل فيُروى الأرض ،
ويُنبت الزرع .

وراحت جماعةٌ أخرى تقول لِهود : أين إلهك
يا هود ؟ لقد كنتَ تقول : ادعوه لينزل عليكم
المطر . فها هو ذا المطرُ قد أقبلَ فى هذه السحابةِ
العظيمة ، وإلهك لم يصنعْ شيئاً . بل إن آلهتنا هى
التي أرسلتْ لنا هذه السحابةَ المُمطرةَ التى تراها .
وراحت جماعةٌ ثالثةٌ ترقص وتُغنى أمامَ الآلهةِ
وتُصفقُ وتصيح ...

وبينما القومُ فى فرحتهم ، هبَّتْ رياحٌ شديدةٌ
عاصِفةٌ ، تُحطِّمُ الأشجار ، وتُكسِّرُ الأسوار ، وتُكفىُّ

القدور والأواني ، وتحمل الحصى والرمل ، فتضربُ
بها وجوه الكفار ، وتُعمى عُيونهم ، وكانت ريحا
باردة تُبَيِّسُ الجلود ، وتُجمِّد الأيدي والأرجل
والآذان والأنوف .

فصرخ الكفار ، وانكفئوا على وجوههم ، ولكن
الريح لم ترَحْمَهُمْ . فاستمرت تهبُّ وتُدَوِّي سبعَ
ليالٍ وثمانية أيام . حتى دُمِّرَت كلُّ شَيْءٍ ، وقتلت
الناسَ والحيوان ، وأهلكَتِ الزَّرْعَ والشَّمار ، وخرَّبتْ
هذه الأراضى العامرة ، فلم يَعدْ فيها إلا جذوعُ
الأشجار المهشمة ، وبجانبها جذوعُ الكفارِ يابسةٌ
محطمة . إلا هودًا فقد نَجَّاهُ اللهُ منها .

وكلُّ شَيْءٍ قد انتهى وزال ، ولم تبق إلا البيوتُ
الصخريةُ قائمةٌ تقول :

هنا كان يسكن رجالُ عاد ، أولئك الضَّخَامُ

الشَّدَاد ، الذين بنوا إِرَمَ ذاتِ العِمَاد ، التي لم يُخْلَقْ
مثلها في البلاد ، وقد أَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ،
سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ، فَتَرَى
الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى ، كأنَّهم أعجازُ نخلٍ خاوية ، فهل
تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ؟